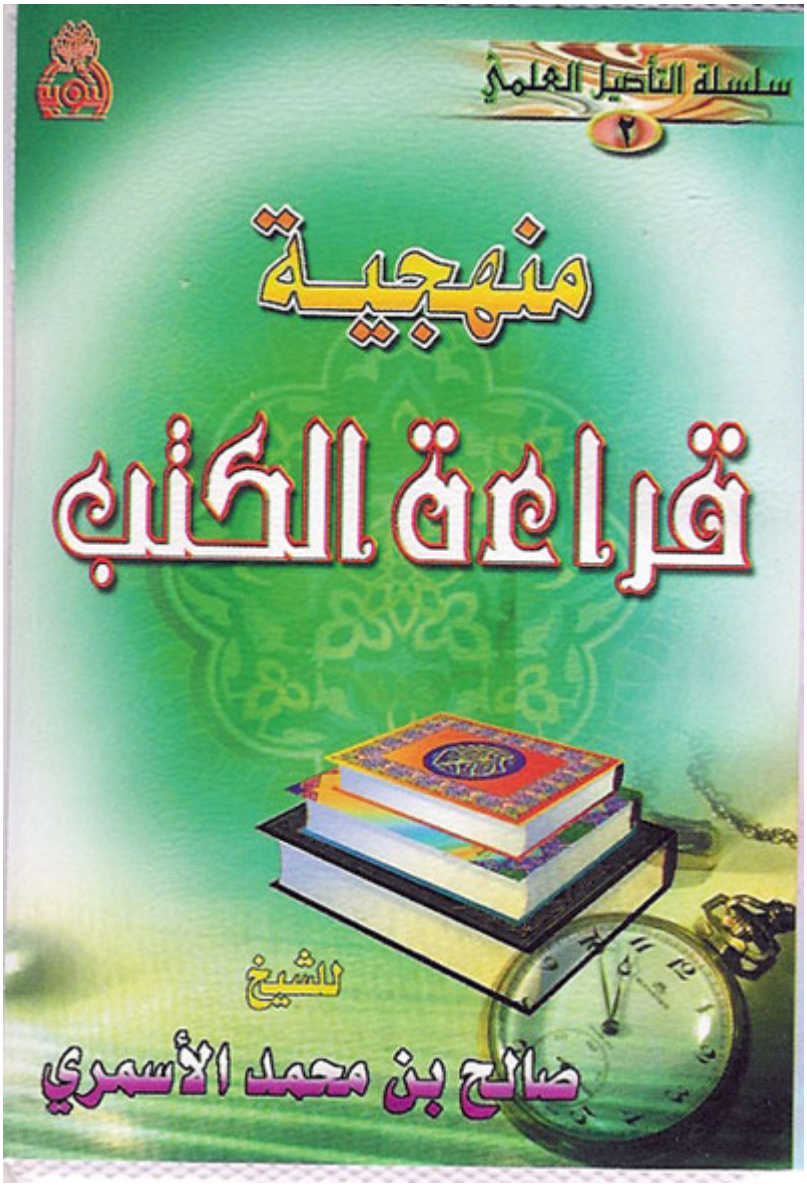

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على إمام المتقين وسيد المرسلين سيدنا ونبينا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد :

فإن الكتب هي ثاني طرق التعلم ، ولذا فقد عني بها العلماء قديماً وحديثاً ، ونظراً لتخبط بعضٍ في طرق الاستفادة منها ؛ كان لا بد من بيان أهميتها ، وكيفية الاستفادة منها ، ومعرفة قواعد مهمة لفهم كلام أصحابها .

وسداً لهذه الحاجة ، فقد ألقى فضيلة الشيخ الفقيه صالح بن محمد الأسمري ـ حفظه الله ـ محاضرتين في ذلك :

الأولى : بعنوان (قراءة الكتب لماذا؟ وكيف؟) .

الثانية : بعنوان (قواعد فهم كتب العلماء) .

وقد جمعتا في (ألبوم) بعنوان :(منهجية قراءة الكتب) .

ولأهمية تلكم المحاضرتين أحببنا تلخيصها وتهذيبها في هذه الصفحة المباركة.

قراءة الكتب لماذا؟ وكيف؟

قراءة∃ الكتب لماذا ؟ :

ـ لا شك أن قراءة الكتب تعود على المتعلم بفائدة عظيمة .

وقد دل على ذلك دلائل كثيرات ،منها مايعود إلى الشرع ، ومنها ما يعود إلى النظر.

قراءة∃ الكتب كيف؟.

هناك أمور ثلاثة :∃

1– أصول موصولة .

2– متممات مكملة .

3– وصايا موجهة .

أولاً : أصول موصلة

قراءة أي كتاب يقوم على ركائز ثلاث لابد منها :

الركيزة الأولى : أن يكون القارئ على معرفة بلغة الكتاب .

الركيزة الثانية : أن يحدد القارئ هدفه من قراءة الكتاب .

والأهداف التي يتوخاها الإنسان عند قراءته لكتاب ما على أنواع غير محصورة

فمنها : قراءة تسلية ، قراءة فهم وتدبر لمعرفة مقصود الكتاب ...

الركيزة الثالثة : المعرفة بالطريقة التي تتناسب مع الهدف.

وتختلف الطرائق باختلاف الأهداف ، فمن أراد أن يختصر كتاباً ـ مثلاً ـ فله طريقة معينة ، وهكذا على حسب اختلاف الأهداف .

ثانياً : متممات مكملة

هي محصلة ركائز ثلاث :

الركيزة الأولى : التدرج في القراءة وخطواتها .

فلا بد في البداءة بالقراءة في الكتب الواضحة قبل الغامضة المشكلة .

وها هنا أمران مهمان عند ذكر التدرج :

ـ الأول : أهمية حفظ أصول العلم ، فإن به يحصل ضبط المسائل والفصول.

ـ الثاني : أنه من الآفات أن يكون الإنسان صاحب تناتيف من العلوم ، فينظر في علوم كثيرة ، ولا يبلغ الإمامة في شيء منها.

الركيزة الثانية : القراءة الصحية .

يذكرها أهل الصحة والتطبب ، ومرجعها إلى مراعاة ثلاثة أشياء:

أولها : هيئة القراءة : وينبغي أن يجتمع فيها شرطان :

(1) أن تكون مريحة للعين الباصرة . (2) أن تكون مريحة البدن .

ثانيها: مراعاة الوقت : بأن يكون زمن القراءة فيه أريحية نفس وراحة تامة .

ثالثها: المكان : بأن يكون خالياً من الضجيج والأصوات المزعجة ، أو الصور التي تأخذ النفس وتأسرها .

الركيزة الثالثة : أن يتعرف المرء على جهات الخلل في أي كتاب يقرؤه .

فإن هناك جهات ثمان ، لا يمكن أن يأتي الخلل إلى المكتوب إلا عن طريق واحد منها ، حصرها وعدها عداً الإمام الماوردي – يرحمه الله – كما في ∀ أدب الدنيا والدين ∀ ،وخلاصتها:

1– إسقاط ألفاظ من الكلام .

2– زيادة ألفاظ أثناء الكلام يُشكل بها معرفة الصحيح غير الزائد من معرفة السقيم الزائد فيصير الكل مشكلاً .

3– إسقاط حروف من أثناء الكلمة الواحدة والكلمة نوعان :

– كلمة إذا سقط منها حرف بان عند تلاوتها لترددها أو شهرتها .

– كلمة أخرى إذا سقط منها حرف انقلبت إلى كلمة أخرى تتلى على معنى آخر .

4– زيادة حروف في أثناء الكلمة .

5– وصل الحروف الموصولة ، وفصل الحروف الموصولة .

6– تغيير الحروف عن أشكالها ، وإبدالها بأغيارها .

7– ضعف الخط عن تقويم الحروف على أشكالها الصحيحة ، حتى تصير العين الموصولة كالفاء ـ مثلاً ـ .

8– إغفال النقط والأشكال التي تتميز به الحروف المشتبهة ، وذلك أن الأوائل لم يكونوا ذوي عناية بتنقيط ما كان معجماً من الحروف .

ثالثاً : وصايا موجهة

الوصية الأولى : لابد لطالب العلم أن يكوّن مكتبة في منزله ومقر وجوده ؛لأنها آلة التحصيل.

الوصية الثانية : ألا يقدم على شراء كتاب إلى بعد الاختيار ، بأن يكون معتمداً عند أهل فنه .

والاختيار يختلف باختلاف الناس ، فمنهم العالم القادر على تقويم الكتب ، ومنهم من ليس كذلك ، فهؤلاء يأخذون مبدأ الاستشارة في شراء الكتب .

والاستشارة لها شرط وهو أن توقف المستشار على مبتغاك مع كونك تختار المستشار ، ولها أدب وهو أن تتأدب مع من تستشيره ، فلا تخالفه بعد الاستشارة لهوى نفس لا شيء آخر .

ومن الكتب التي تعين في معرفة أفضل كتب الفن ، ما يسمى بـ (الكتب الوصفية) وهي التي تعنى بتوصيف كتب فنّ معين ، تستقرئ قديمها وحديثها ، ثم تقومه في ميزان النقل والتقويم الحق ، فمثلاً في النحو تجد ـ مثلاً ـ كتاب ∀ نشأة النحو ∀ لطنطاوي .

الوصية الثالثة : ينبغي عند شراء الكتب أن تراعي أمور ثلاثة :

1– أن يعلم أن تكوين مكتبة لطالب علم لا تأتي في عشية وضحاها في حال جملة الناس ، وهناك صنف من الناس قد كساه الله بالثراء فله أن يفعل مكتبة في عشية وضحاها .

2– إذا أراد أن يشتري كتاباً عاجلاً فليقدم نوعين من الكتب :

– الكتب الأصلية في فنها .

– ما يحتاجه من كتب في دراسة أو حلقة علم أو نحو ذلك .

3– عند شراء المرء الكتاب لابد أن تراعى دور النشر التي ثمنها زهيد حتى يضع بقية النقود في كتب أخرى ، وأن يتفقد الكتاب الذي اشتراه وخلوه من العيوب الطباعية ، ثم يتأكد من هو الكتاب المطلوب لا غيره.

الوصية الرابعة : تتعلق بإعارة الكتب .

فينبغي ألا يكون الإنسان بخيل النفس ، فيحبس الكتب عمّن يستعيرها منه ، وهو يريد أن يأخذها لمعرفة وهو مستحق لذلك العطاء وهو واثق به ، وهو أدب رفيع قلّ من تخلّق به .

إلا أن هناك شروطاً ثلاثة عند الإعارة :

1– أن يكون المستعير مستفيداً من الكتاب الذي طلبه ، ولا يكون متفكهاً بالطلب .

2– أن تكون على ثقة من إرجاع الكتاب إليك من قبل المستعير منك .

3– أن تُعَلّم كتابك بعلامة من العلامات حتى لا يذهب عنك ، كإثبات ملكيتك له ، أو وضع ختم لك ونحو ذلك .

وللاستعارة آداب حاصلها أربعة:

1. أن تصون الكتاب إن استعرته من غيرك .
2. الشكر لمن أعارك كتاباً .
3. ألا يطيل المرء بقاء كتاب عنه وقتاً طويلاً .
4. ألا يتصرف بالكتاب الذي استعاره بعد استئذان صاحبه .

آخر الوصايا : تتعلق بآداب متفرقات مع الكتب :

أولاً : صون الكتاب وحفظه من المعايب والمثالب.

ثانياً : مراعاة المكان الذي يوضع فيه الكتاب ونظافته ونزاهته.

ثالثاً : تتعلق بترتيب الكتب وفهرستها عند تكوين خزانة كتبية في بيت أو نحوه ، فينبغي أن يرتبها المرء على حسب مقدار علومها .

رابعاً : كتابة الحواشي والتعليقات وفق آدابها المعتبرة، ومن ذلك :

– أن يكتب التصحيحات لخطأ مطبعي أو نحوه ، على هامش الكتاب على جانبه ويضع بعدها (صح) كما هو هدي المحدثين .

– إذا قرأ كتاباً ثم أراد أن يقف ويرجع إليه من وقت لآخر فيكتب عند المكان الذي وقف عنده (بلغ) كما هو هدي المحدثين .

– إذا أراد أن يكتب فائدة على كلام مرّ عليه ، أو جملة قرأها في كتاب ، فيكتبها بادئاً بجهتها اليمنى ، بادئاً من الحاشية ، ثم يعلي الكتابة نحو أعلى الصفحة حتى إذا أراد أن يكتب شيئاً بعد ذلك السطر وجد له متسعاً وهي من الطرائق المستحسنة التي يفعلها المحدثون وغيرهم .

– وأن تكون بخط واضح .

قواعد لفهم كتب العلماء

لا شك أن∃ تصحيح مسار الفهم ، وتصويب سبيل المعرفة أمر مهم جداً ، ولذا كان حسن الفهم من أعظم النعم .

وجميع مايراد تفهمه يحصل بطريقتين :

الأولى : بيان المتكلم عن مراده ومفهومه .

والثانية : تمكن السامع من تفهُّم الشيء .

إلا أن الفهم له آفته كما أن للكتب آفاتها ، فلا بد من قواعد تضبط ذلك ، وهي كالتالي:

القاعدة الأولى : البنية المعرفية للقارئ لكتابٍ علمي تأصيلي لها أثرها الواضح في حسن الفهم لمصطلحات وأبواب ومسائل الكتاب.

ذلك أن مطالعة كتب المصنفين ومدوني الدواوين نافع في بابه بشروط ، منها : فهم مقاصد ذلك العلم المطلوب ومعرفة اصطلاحات أهله ، وذلك يحصل أخذ العلم مشافهة عن العلماء أو مما هو راجع إلى ذلك ، والكتب وحدها لا تفيد الطالب منها شيئا دون فتح العلماء وهو مشاهد معتاد .

القاعدة الثانية : الرجوع إلى المعروف من حال المصنف ومذهبه وحاله عن وجود عبارات مشتبهة في كلامه.

القاعدة لثالثة : مراعاة أحوال المؤلف وأطواره ـ إن مر بأطوار ـ في منهجه الاعتقادي أو الفقهي أو نحو ذلك .

القاعدة الرابعة : مراعاة التراجعات العلمية . إذ إن الرجوع إلى الحق فضيلة ، وكان أسلافنا الأخيار يرجعون إلى الحق إذا بان لهم ، فعندما يصطحب الناظر في الكتب لهذه الحقيقة يعلم يقيناً أن المصنف لكتاب ، قد يرجع عن قول قرره في الكتاب نفسه أو في بعض نسخه المتأخرة أو في أي كتاب آخر ، ولذا فلا ينبغي التسرع في نقل قول عالم من كتاب إلا إذا علم أنه أقره ولم يتراجع عنه .

القاعدة الخامسة : حمل المُجمل من كلام المؤلف على المُفَسَّر في الكتاب نفسه أو في كتابٍ آخر له.

القاعدة السادسة : تفهم الكلام حسب الدلائل المعتبرة في فهم كلام المؤلفين.

إذ إن الدلائل نوعان:دلائل معنوية ،ودلائل لفظية ، والدلائل اللفظية ثلاث :دلالة موافقة ، ودلالة لزوم ، ودلالة تضمن .

وإنما يفهم من خلال دلالة المطابقة والتضمن ، أما دلالة اللزوم فلا يُعمل بها على إطلاق إلا في مجالين :

الأول : أن يلزمه صاحبه إذا ذكر له اللازم .

والثاني : أن يدل عليه ما جرى مجرى لفظه من تنبيه أو إيماء أو نحوهما من الدلالات اللفظية .

القاعدة السابعة : مراعاة موارد الكلام للناظر في الكتب ، فقد يكون مورد الكلام وعظاً أو محاجّة لخصم ، أومناظرة لمخالف أو نحو ذلك ، فإنه قد يتنزل الإنسان في المناظرات ما لا يتنزله في باب التقرير ، وهكذا .

فوائد تتعلق بمطالعة الكتب

الفائدة الأولى : أن تكون القراءة للكتاب بنية عدم الرجوع إليه مرة أخرى ، وفي ذلك يبادر إلى استنفار قواه العقلية .

الفائدة الثانية : مراعاة الزمن عند قراءة الكتب ، فإن العمر قصير والعلم كثير ، فينبغي على الإنسان أن يعوِّد نفسه على سرعة القراءة مع تفهم .

الفائدة الثالثة : تحديد الغاية من قراءة الكتاب من اختصارٍ أو تلخيصٍ أو جردٍ لاستخراج أشياء معينة ، وبحسب تحديد الغاية تكون الطريقة المناسبة للقراءة

.

الفائدة الرابعة : الانتقاء والاختيار ، فإن الكتب كثيرة ، بل هي في كل فنّ كتب كثيرة .

خـاتـــمة

ورغم أهمية الكتب وعِظمِ نفعها ، فإن الاعتماد عليها وحدها دون شيخٍ غيرُ نافع ، ولذلك يقول الشافعي – يرحمه الله – : (لا تأخذ العلم عن صحفي ، ولا القرآن عن مصحفي) .

ويقول ابن خلدون – يرحمه الله – في :∀مقدمته∀ بعد ذكره قواعد عظمى في أخذ العلوم : (إلا أن التلقي بالمباشرة والأخذ عن العلماء ، هو الذي يورث تمام الملكات).

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه.